مفهوم التكيف في الدراسات الانثروبولوجيا الثقافية

The concept of adaptation in cultural anthropology studies

أ.م.د عامر لطفي عبد الكريم شويخ

Prof. Dr. Amer Lotfi Abdel Karim Shweikh

وزارة التربية - كلية التربية المفتوحة

الملخص

يُعد التكيف الثقافي من المفهومات الجديدة نسبيًا إذ يستخدم لتحديد القدرة المحددة للبشر والمجتمعات البشرية للتغلب على التغيرات في بيئتهم الطبيعية والاجتماعية من خلال إدخال تعديلات على ثقافتهم يعتمد حجم التغييرات الثقافية على مدى تغيرات الموائل ويمكن أن يختلف من تعديلات طفيفة في أنظمة المعيشة (النشاط الإنتاجي والمشتريات، ونمط الحياة، وخصائص المساكن والمستوطنات، وأنظمة التبادل، والملابس، وما إلى ذلك) إلى التحول الرئيسي في النظام الثقافي برمته، بما في ذلك المجالات الاجتماعية والعرقية والنفسية والأيديولوجية.

كلمات مفاتيح/ التكيف، التكيف الثقافي.

Abstract

Cultural adaptation is a relatively new concept used to define the specific ability of humans and human societies to overcome changes in their natural and social environment through modifications to their culture The magnitude of cultural changes depends on the extent of habitat changes and can vary from minor modifications in living systems (productive activity، procurement، and lifestyle، characteristics of dwellings and settlements، exchange systems، clothing، etc.) to the main transformation of the entire cultural system، including social، ethnic، psychological and ideological spheres.

Keywords: adaptation، cultural adaptation

المقدمة

يُعرف علماء الأنثروبولوجيا اليوم أن الاختلاف البشري هو نتيجة لعدد من العوامل التطورية بما في ذلك الطفرات والانحراف الجيني وتدفق الجينات والانتقاء الطبيعي، الطفرات هي تغييرات عشوائية وعفوية في الجين يمكن أن تسببها أي عدد من العوامل البيئية هم المصدر النهائي لجميع الاختلافات الجينية، الانجراف الجيني هو أيضًا عامل عشوائي مرتبط بحجم السكان في مجموعة سكانية صغيرة، قد يساهم بعض الجماعات بنصيب غير متناسب من الجينات للأجيال القادمة، التدفق الجيني هو تبادل الجينات بين السكان، يحدث عندما يهاجر الناس إلى منطقة جديدة (إما بشكل مؤقت أو دائم) ويتزاوجون مع مجموعة سكانية أخرى، أخيرًا هناك الانتقاء الطبيعي، الآلية الأساسية للتغيير التطوري.

لعبت التكيفات الثقافية أيضًا دورًا مهمًا في تطور الإنسان، يشير التكيف الثقافي إلى الاستجابات غير البيولوجية للأفراد أو الجماعات للتخفيف من الإجهاد البيئي، إنها آلية مهمة سمحت للبشر بالبقاء واستعمار مناطق غير مضيافة نسبيًا حتى يمكن حدوث تكيفات فسيولوجية، تشير جميع الأدلة حتى الآن إلى أن البشر قد تطوروا في مناطق السافانا الحارة في شرق إفريقيا، يتعامل البشر اليوم بشكل أفضل مع الحرارة أكثر من البرودة، مما يوضح التكيفات طويلة المدى للحرارة التي نشأت في أسلافنا، عندما هاجر البشر إلى بيئات أكثر برودة، اخترعوا النار والملابس والمأوى للبقاء على قيد الحياة.

التكيف

نشأ مفهوم التكيف في علم الاحياء ويقصد به اي تغير طرأ على الكائن الحي في الشكل والوظيفة، كما يُعرف بأنه عملية مستمرة يحاول الفرد بها مواجهة

العوامل الطبيعية المحيطة به ليقوى على متابعة الحياة من دون فنائه بحيث تنشأ لديه الخصائص التي تجعله اكثر استعداداً للتلازم مع ظروف البيئة المحيطة، وبالتالي تغير السلوك لإحداث علاقة اكثر توافقاً بينه وبين البيئة، بمعنى آخر ان التكيف هو القدرة على تكوين العلاقات المُرضية بين الفرد والبيئة، والتي تشمل جميع المؤثرات والامكانات والقوى المحيطة التي يمكن بها التأثير على جهوده لتحقيق الاستقرار في معيشته، وتتمثل هذه البيئة في (البيئة الطبيعية، والاجتماعية، والثقافية)[١].

يعرف «كوهن» Choen التكيف بأنه «مبدأ منظم يتبادل فيه البشر العلاقات مع الموطن لكي يجعلوا ذلك الموطن ملائمًا للحياة»، ويعرف «ويلك» Wilk التكيف بأنه «عملية نشطة يغير فيها الناس بيئاتهم، كما يغيرون من أنفسهم ومن أشكال تنظيماتهم الموجودة، ويشتمل ذلك على التفاعل بين النظام الاجتماعي وتقنيات الإنتاج»[٢].

يحتفظ مفهوم التكيف بمكانة رئيسة في دراسة العلاقة بين الانسان والبيئة الطبيعة، فقد اشار الكثير من الانثروبولوجيين عام **١٩٣٧** الى مفهوم التكيف، وفي تعريف عالم الانثروبولوجيا جوليان ستيوارد للثقافة او«اللب» داخل المجتمعات أخذ بعين الاعتبار استراتيجيات البقاء والتكنولوجيا الجديدة لجميع الحاجات الاساسية، مثل انتاج الطعام[٣].

(١) نادر الملاح، التكيف الاجتماعي، لبنان ،٢٠٠٩، ص٧٦.

(2) Catherine Marquette، >Cultural Ecology: Introduction، Themes، History، Journals، lins، Information tables<، 2006، (http://indiana.edu/newnthro/eco.htm).

(3) J.Steward،Theory of Culture Change: the Methodology of Multilinear Evolution، Urbana، University of Press، 1955،p.30

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

يحدث التكيف البيولوجي كرد فعل لضغط البيئة الخارجية، ونتيجة لوجود استعداد ومرونة لدى الانسان لحدوث عمليات التأقلم مع هذه البيئة، وقد تنحصر هذه العمليات في عضو معين من اعضاء الجسم او عملية حيوية معينة وقد تشمل الجسم كله، كما يمكن ان تأخذ صورة تغيرات فسيولوجية طارئة تستمر لفترات قصيرة المدى، او تأخذ صورة تغيرات تؤثر في بيئة الانسان، عندما يستغرق التعرض للتأثيرات البيئية فترات طويلة المدى[١].

هناك حقيقة واضحة تؤكد ان الانسان يتكيف اذا ما اراد ان يعيش ويتكاثر ويبقى، فمن الضروري ان تتكيف الجماعات السكانية مع العالم الفيزيقي الذي يعيش فيه.

فعندما تتكيف جماعة ما مع بيئاتها فهذا يعني انها تعدل علاقاتها ببيئتها او المكان الذي تعيش فيه لجعله اكثر ملاءمة او ان تجعل نفسها اكثر تلازماً للعيش في ذلك الوسط.

ذلك يعني ان التكيف هو عملية ديناميكية مستمرة تقوم في اساسها على التغير وليس الثبات، اذ تتغير البيئات والعلاقات الايكولوجية طوال الوقت، حيث تتطلب التغيرات المناخية مثل الفيضانات الموسمية والكوارث الطبيعية استجابات تكيفية، وبعض هذه الاستجابات تظهر بسرعة وتختفي بسرعة بزوال تلك الضغوط البيئية، في حين تأخذ استجابات اخرى اجيالاً لتظهر في الجماعات السكانية.

التكيف الثقافي

يشير كيسنج[٢] Kessing عام

(١) فتحية محمد ابراهيم، الثقافة والبيئة: مدخل الى دراسة الانثروبولوجيا الايكولوجية، دار المريخ،الرياض، ١٩٨٨،ص٩٦.

(٢) روجر مارتن كيسينج عالماً لغويًا أمريكيًا وعلمًا أنثروبولوجيًا أمريكيًا، وأبرز ما قام به من أعمال ميدانية على شعب كوايو في مالايتا في جزر سليمان، وكتاباته حول مجموعة واسعة من الموضوعات بما في

(١٩٧٤) الى الثقافة كأداة للتكيف مؤكداً انها الأداة التي يتعامل من خلالها الجماعات مع البيئة ووسيلة بواسطتها يستجيب الجماعات لمضمون التغير البيئي، ويعتمد العنصر الاساسي للتكيف الثقافي على التكنولوجيا وانشطة البقاء ووسائل تنظيم الانتاج، وتحتوي على بعض الافكار التي توضح السلوك الثقافي مثل المعتقدات الدينية مع اغراض تكيفية مثل ضبط النمو السكاني[١].

يرتكز موضوع التكيف الثقافي على الدور البشري ومحاولة التعرف على رؤية الناس لطبيعة الانشطة المتاحة وكيفية استغلال الجوانب والمقومات الفعالة في تراثهم الثقافي لتغيير وجهة نظرهم نحو الاعمال المختلفة واستحداث انشطة غير موجودة وكيفية الاستغلال الامثل لموارد البيئة المتاحة، كما يؤخذ في الاعتبار المدة الزمنية لتحديد التكيف الثقافي حيث يتم التكيف في ضوء عدد من المراحل (طويل المدى، متوسط المدى، قصير المدى) اذ يظهر التكيف قصير المدى في كل الممارسات التي تتم خلال دورة سنوية، كما يتمثل التكيف متوسط المدى في كل الممارسات التي تحدث خلال فترة حياة الفرد، والتكيف طويل المدى يحدث في حياة جماعة سكانية بأكملها لأطول فترة من الوقت[٢].

وقد قدمت «جون هيلم» June Helm تحديدًا إمبريقيًا لمدخل الإيكولوجيا الثقافية بأنها تعني بتكيف الجماعة البشرية مع البيئة الطبيعية، وبالشروط والعوامل الديموجرافية والاجتماعية والثقافية التي تحدد هذا

ذلك القرابة والدين والسياسة والتاريخ والأنثروبولوجيا المعرفية واللغة.

(1) Elmers Miller and Charles A. Weitz، >In Introduction to Anthropology<، Prentice-Hall، Inc-New Jersey، 1979، P. 317.

(٢) انظر يسرى دعبس، تنمية الموارد البشرية في المجتمع البدوي دراسة في الانثروبولوجيا الاقتصادية، الاسكندرية، ١٩٩٨، ص٦٩.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

النظام، وما يترتب عليه من نتائج، وتؤكد أن افتقاد الباحث الأنثروبولوچي إلى محك التكيف مع البيئة يعني افتقاده لا محالة باهتمامات الباحث الإيكولوچي. فالتكيف عملية لها أصولها وجذورها ومظاهرها الثقافية وهي جوهر الإيكولوچيا الثقافية[١].

يرى روي Roy ان التكيفات الثقافية قصيرة المدى تتمثل في الاستجابة لمخاطر معينة خلال اوقات معينة بعد العاصير كموع من التكيف مع الخسائر التي احدثتها ثم تفرقهم بمجرد انتهاء المشكلة لأن الممارسة لم تأخذ سوى وقت قصير هي فترة تكون المشكلة وانتهائها، لكن عندما تتكرر المشكلة ويواجهها السكان في كل مرة بنفس الاستجابة حيث تصبح سمة مميزة لهم، عندئذ يمكن النظر الى هذه الاستجابة انها طويلة المدى[٢].

نفس الحال لدى قبائل (البوشمن) يتجمعون في موسم الجفاف ويتفرقون في موسم المطر، اذ يأخذ ذلك التجمع حوالي (٣-٦) شهور في السنة، ويتفرقون بقية السنة في شكل زمر صغيرة يعد هذا التفرق والتجمع حسب نظرية روي تكيفاً قصير المدى لأنه يحدث داخل اطار السنة (دورة موسمية) لكن البوشمن يفعلون هذا دائماً او تلك هي طريقتهم في الحياة، لكن ما نستنتجه ان طريقة الحركة تلك مع تكرارها اصبحت تكيف طويل المدى حسب نظرية روي.

تم تطوير مفهوم الوظيفة البيئية للثقافة بشكل أكبر في الدراسات الحديثة التي أجراها عالم الإثنولوجيا الروسي سيرجي

(1) () J. Helm، >The Ecological Approach in Anthropology< in American Journal of Sociology، Vol. 11، No. 6، 1962، P. 630.

(2) Roy Ellen. Environment- Sub-sistence and System: the Ecology of Small-scale Social Formation ،University of Kent at Conter Burg، New York، 1986.p.247.

أروتيونوف، يجب أن ننظر إلى الثقافة على أنها مجموعة من الطرق المختلفة لإضفاء الطابع المؤسسي على النشاط البشري تتمثل الوظائف الأساسية للثقافة في تكوين البيئة وتحويلها من ناحية، والبشر بخصائصهم الروحية والجسدية، من ناحية أخرى إن تكوين النظام الثقافي هو عملية تكيف مع مجالات محددة، في البداية تلك الطبيعية فقط، ولكن المنافذ التي بمرور الوقت تصبح أكثر اجتماعية لتكون قادرة على تحقيق وظيفتها التكيفية، يجب ألا تكون الثقافة قادرة على الاستجابة للحد الأدنى من المتطلبات البيئية فحسب، بل يجب أن تمتلك أيضًا تحت تصرفها الإمكانات اللازمة لتحقيق تأثيرها التكيفي في الظروف الجديدة [١].

(1) Arutyonov، SAdaptivnoie znachenie kulturnogo polimorfizma [Adaptive meaning of cultural polymorphism]. Etnograficheskoe obozrenie.; (1993). 3، 41-56.

يوضح مارفن هاريس الانثروبولوجي الامريكي ان اوجه الاختلاف بين الثقافات المختلفة بيئياً، كذلك اثر الثقافة على تكيف الجماعات امام التغيرات التي تحدث في بيئاتهم[٢].

والواقع ان نظرية مارفن هاريس تفسر عادة كمتغير من متغيرات الحتمية البيئية فقد كرس جهده فيما اجراه من البحوث للبحث عن تفسيرات ايكولوجية لبعض الممارسات الغريبة، على سبيل المثال» تحريم بعض الاغذية او التابو، فقد عرض هاريس مثالاً يوضح فيه تحريم الهندوس أكل لحوم البقر وما له من مدلول بالنسبة للبيئة المحلية، فالحرمانية الدينية لها معنى مادي يتضمن الحفاظ على الموارد التي تقدمها الابقار كسماد ولبن والعمالة.

استخدم «جوليان ستيوارد» مفهوم

(٢) ايمان علي، التكيف الثقافي في المجتمعات المستحدثة، جامعة بني سويف، كلية الآداب،٢٠١٢، ص٦، رسالة ماجستير غير منشورة.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

النمط الثقافي للتعرف على العلاقة بين الثقافة والملامح البيئية. وقدم مثالاً للسهول العظمى وهي أقاليم جغرافية يوجد بها عدد من المجتمعات المتشابهة في طرق المعيشة، وتتكون من (٣١) جماعة مستقلة سياسيًا، ويتوفر لديها الجاموس الذي يعتبر المصدر الرئيسي للغذاء، والملبس، والمأوى ويحصل كل شخص على مكانته من قدرته على الصيد، ومهارته في القتال، وإقامة مخيماتهم على شكل دائري مميز، ويمارسون طقوس دينية مثل رقصة الشمس التي كانوا يمارسونها في كل أنحاء السهول، وأحيانًا لا تكون هذه الأقاليم متماثلة في المناخ.

وينقسم الهنود الشوشون ساكني السهول العظمى إلى جماعات شمالية وجماعات غربية، ويعملون بالصيد، وجمع الطعام. ففي الشمال يوجد وفرة نسبية في صيد الحيوان، والتي تحتاج إلى تعاون بين الجماعات المحلية، أما الغربيون فيعتمدون كلية على جمع النباتات البرية. فالشوشون ليسوا هم السكان الوحيدون في السهول العظمي. ففي الجنوب يعيش أقاربهم «البايوتس» وهم أيضاً صيادون، وجامعي طعام، ويعيشون تحت نفس الظروف البيئية؛ ولكن استطاع البايوتس تدبير مصادر الطعام بنشاط أكبر بحفر مجاري مائية صغيرة لري المحاصيل البرية[1].

قد اعتمد علماء الأنثروبولوچيا على هذه الطريقة لتفسير العديد من العمليات، منها التعرف على الاستجابات التكيفية، وكيفية مواجهة الإنسان للظروف القاسية، وإيجاد الحلول لهذه المصاعب، كما تفيد هذه الطريقة في فهم عملية تكيف المهاجرين إلى المواطن الجديدة، أو ما يعرف بالمجتمعات المستحدثة، كما تساعد على دراسة الخصائص المحددة التي يتميز بها سكان منطقه عن غيرها من المناطق الأخرى.

(1) William A-Haviland، Op. Cit.، P. 163.

لقد أثبتت الدراسات التي أجريت في الكونج سان وغيرهم من مجتمعات الالتقاط والجمع والصيد التي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، خطأ الرأي القائل، أن أسلوب حياة الالتقاط والجمع والصيد يحتم على الجماعات الذين يمارسونه أن يعيشوا في بؤس وتجول وانتقال مستمر بحثًا عن الطعام، وأن يتعرضوا دائمًا للمجاعات التي لا يمكن تجنبها إلا بفضل المجهود اليومي الشاق والدائم. فقد كشفت الدراسات عن أن الأشخاص الذين تتعدى أعمارهم (٦٠) عاما تبلغ نسبتهم ١٠٪ من مجموع عدد أفراد الجماعة (في مقابل ٥٪ في المجتمعات الزراعية كالبرازيل والهند)، وأنهم وبقية أفراد الجماعة يتمتعون بصحة جيدة كما بينت الفحوص الطبية[١].

وإذا نظر إلى الكمية الكبيرة من اللحوم وغيرها من مصادر البروتين التي يشتمل عليها غذاء الكونج سان، والظروف البيئية المستقرة، وأوقات الراحة الطويلة، يتبين بوضوح أنهم يتمتعون بمستوى عالٍ من المعيشة. ويرجع سبب ذلك إلى قلة عدد السكان بالنسبة إلى موارد الطعام. فللشخص منهم ما يعادل الميل المربع من أراضيهم ولا يزال الجهد الذي يبذل في الإنتاج تحت درجة تناقص الغلة بكثير، مع عدم احتمال لجوئهم في المستقبل إلى توزيع الإنتاج الاقتصادي عن طريق تكثيف أو زيادة الطاقة والجهد الذي يبذل في الإنتاج، أو زيادة فترته (وإن كان قد حدث أو جاورتهم في الوقت الحاضر جماعات جديدة تمتلك قطعان من الماشية). مع العلم بأنه إذا ضاعف الكونج سان جهدهم في الصيد من يومين إلى أربعة أيام فسوف يواجهون كارثة استنزاف الحيوانات التي تعيش في أراضيهم وهكذا يمكن القول أنهم يستفيدون من خضوعهم للزيادة

(١) مارفن هاريس، الانثروبولوجيا الثقافية، ترجمة مجموعة من الاساتذة، دار الثقافة العربية، ط٢، مصر ،٢٠٠٦،ص٦٣.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الطبيعية، التي تتم في معدل نمو النباتات والحيوانات التي توجد في أراضيهم، بمعنى أنهم لا يحاولون التدخل لزيادة هذا المعدل بأي أسلوب من أساليب تربية الحيوان أو زراعة الأرض كما يمكن القول أيضًا أن أسلوبهم في الإنتاج يحتم عليهم بذل جهد أقل مما يبذله المزارعون في المجتمعات الريفية، أو العمال في المصانع الحديثة[١].

تناول «كليفورد جيرتز» أثر العوامل البيئية في تشكيل النسق الاقتصادي الإندونيسي، فأوضح أن توافر التربة الخصبة والمياه والمناخ المناسب ساعد على توافر أنماط متعددة لزراعة العديد من المحاصيل، أهمها لدى الچافي زراعة محصول الأرز مع وجود بعض الصعوبات في زراعة بعض المناطق الأخرى لتكوين الجبال ووجود البراكين التي أخضعها المستعمر للتطور التكنولوچي، وطوعت لزراعة قصب السكر، وبعض المحاصيل النقدية الهامة لأغراض سياسية أخرى لفكر المستعمر فقد نتج عن ذلك وجود نسق ثقافي آخر يتمثل في ظهور وسائل تكنولوچية مختلفة عما قبل، وكذلك فإنه يتبلور حول الأهمية الاقتصادية الناجمة عن بيع هذه المحاصيل النقدية الجديدة (قصب السكر، والتبغ، والبن، والذرة، والقطن) وما نتج عن ذلك من تبادل بين المجتمعات المتجاورة.

ومن خلال تحليل «جيرتز» للنسق الإيكولوچي اتجه لشرح العلاقة بين العمليات الاجتماعية والثقافية المتشابكة للأفراد وطبيعة الأشياء المعقدة والمغروسة في هذه البيئة. فقد تناول العوامل البيئية والتاريخية لفترة المستعمر؛ ليوضح شكل الاقتصاد الزراعي في إندونيسيا، التي أخضعها المستعمر للتطور التكنولوچي، وطوع الظروف البيئية من تربة خصبة، ومياه لزراعة بعض المحاصيل النقدية الهامة (كقصب السكر)؛ لأغراض

(١) مارفن هاريس، الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سابق، ص ٦٩ – ٧١.

سياسية أخرى تخدم فكر المستعمر، وما نتج عن هذا الفكر هو وجود نسق ثقافي آخر أدخل على زراعة تلك المحاصيل يتمثل في وسائل تكنولوچية مختلفة، بفكر يتبلور حول الأهمية الاقتصادية الناجمة من بيع هذه المحاصيل النقدية الجديدة، التي أظهرت العلاقة التبادلية بين المجتمعات المتجاورة، والقائمة على أساس التبادل الاقتصادي لبعض المحاصيل، وأوضح «جيرتز» أن هناك محاصيل تحمل معاني اجتماعية وثقافية في عملية التبادل، وأخرى تقتصر على المنفعة الاقتصادية دون التدخل في النمط الاجتماعي لها[1].

الثقافة بوصفها آلية التكيف

ماذا نعني عندما نقول «الثقافة هي آلية تكيفية»؟ بهذا، نعني ببساطة أن الإنسان استخدم الثقافة تقليديًا للتكيف مع بيئته، الثقافة هي الآلية التكيفية التي تسمح للمجتمع بالبقاء على قيد الحياة في بيئته المختارة أو التكيف مع التغيرات المستمرة في بيئته.

يقال أن بين الإنسان وبيئته ثقافة، والوظيفة الأساسية للثقافة هي ضمان بقاء الإنسان في أي بيئة يختارها ليكون فيها، لكل ثقافة طريقة فريدة ومميزة للتكيف مع بيئة معينة، وتحاول كل ثقافة بعناد تحقيق توازن مستدام بين المجتمع والموارد.

في المرتفعات أو المناظر الطبيعية للغابات هناك غياب للتقنيات الحديثة، ما يمتلكه سكان المرتفعات هو المعارف الأصلية التي يتم الاحتفاظ بها بشكل شائع مع التقاليد والممارسات الثقافية ولكن حتى مع الافتقار إلى التقنيات الحديثة، فإن المعرفة والثقافة المحلية تتسم بالمرونة في التكيف مع التغيير. تحكمها الحاجة إلى البقاء، تصبح الثقافة المعلمة القابلة للتعديل والمرنة

(1) Clifford Geertz، >Agricultural Involution: The Process of Ecological Change in Indonesia<، Op. Cit.، PP. 101 – 103.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المستخدمة في التكيف مع المشهد البيئي المتغير باستمرار. ربما، فإن غياب التقنيات الحديثة في المرتفعات، يجعل من الممكن لسكان المرتفعات التمسك بالثقافة كوسيلة للبقاء يمكننا قول هذا مرة أخرى... «الثقافة: آلية تكيفية.

كيف تسمح الثقافة للسكان باكتساب تكيفات تتجاوز قدرات الجماعت ؟ قد تعتقد أن الإجابة واضحة الثقافة تسمح بمشاركة المعرفة لنفترض أن إنويت ذكيًا ابتكر غرزة جديدة تجعل اللحامات مقاومة للماء؛ يمكنها مشاركة هذا مع المعرفة مع أصدقائها وأقاربها دون التقليل من قيمتها بالنسبة لها لا تزال ملابس وأحذية عائلتها مقاومة للماء بغض النظر عن عدد الأشخاص الذين تخبرهم عن اكتشافها نتيجة لذلك، تسمح الثقافة بتوزيع تكاليف الابتكار على الجماعات الذين يتبنون الابتكار لكن مثل هذا الانتشار للتكلفة وحده لا يمكن أن يفسر التطور الثقافي التراكمي لأنه لا يوفر أي سبب للابتكار من الأرخص نسخ شخص آخر. يجب أن تقلل الثقافة أيضًا من تكلفة الابتكار بطريقة ما[1].

يمكن أن تؤدي القدرة على التعلم ثقافيًا أيضًا إلى رفع متوسط اللياقة البدنية للسكان من خلال السماح بالتحسينات المكتسبة بالتراكم من جيل إلى جيل. على سبيل المثال، تختلف الأقواس في العديد من الأبعاد التي تؤثر على الأداء – مثل الطول والعرض والمقطع العرضي والاستدقاق ودرجة الانحناء عادةً ما يكون إجراء تحسينات كبيرة عن طريق التجربة والخطأ أكثر صعوبة من ا لتحسينات الصغيرة. حتى إذا تم إجراء تغييرات صغيرة بشكل عشوائي، فإن نصفها سيزيد من المردود، ما لم يكن التصميم بالفعل في المستوى الأمثل ستعمل ا لتغييرات الكبيرة على

(1) Dr. Robert Boyd.،Culture: the engine of human adaptation، Being Human blog post ، Posted on 09/12/2012

تحسين الأشياء فقط إذا كانت في الاتجاه الذي يتضمن أمثل بعيدًا وبالتالي، نتوقع أن يكون تصميم قوس مفيد من البداية أصعب بكثير من العبث بأبعاد قوس جيد بشكل معقول يبدأ المتعلمون الثقافيون بحثهم بالقرب من أفضل تصميم من المتعلمين الفرديين ويمكنهم الاستثمار في مزيد من التحسينات بعد ذلك، يمكنهم نقل تلك التحسينات إلى الأحفاد، وهكذا عبر الأجيال حتى يتم إنتاج القطع الأثرية المتطورة[1].

تشير هذه الآليات إلى أن التكيف الثقافي يأتي مع مقايضة متأصلة يسمح بالتطور السريع للمعرفة والتقنيات الرائعة الخاصة بالموائل، لكن هذه الآليات لا تعمل إلا إذا كان الناس ساذجين، ويفعلون بشكل أساسي ما يفعله الناس من حولهم التعلم الانتقائي يعني أنك لا تصدق حواسك إلا عندما تتعارض بوضوح مع المعايير الثقافية وإلا فإنك تنسخ الآخرين، يعني تراكم التحسينات الصغيرة أن الناس لديهم الحافز لإجراء تغييرات صغيرة على المعايير الثقافية؛ التغييرات الكبيرة مشبوهة.

الإيكولوجيا الثقافية وأنماط التكيف

بتتبع تاريخ الإنسان على الكرة الأرضية يلاحظ أن الإنسان بدأ حياته بما يسمى بمرحلة الجمع، أي جمع طعامه من ثمار النباتات وأوراقها وسيقانها وجذورها، كذلك جمع ما قد يحتاجه في مأواه من قلف الشجر أو ألياف الأعشاب، في تلك المرحلة كان أثر الإنسان على بيئته أثرًا طفيفًا لا يكاد يجاوز أثر غيره من آكلات العشب ثم تحول الإنسان إلى مرحلة تالية يعبر عنها بمرحلة الصيد والقنص، وأصبح أثره على بيئته يجاوز أثر آكلات العشب إلى أثر

(1) Dr. Robert Boyd is Professor in the School of Human Evolution and Social Change at Arizona State University and co-author of How Humans Evolved.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

آكلات اللحوم فهو يحوي معرفة بأنواع الحيوانات، وسلوكها، وتحركاتها اليومية والموسمية، ومعرفته بتكنولوچيا الصيد وتطوير المصايد والرماح والفخاخ، ثم وضع أساسيات التخطيط للقنص، كما اكتشف الإنسان النار، وبذلك أصبحت له قدرة على التأثير البيئي تزيد بكثير على قدرته العضلية.

وتدرج الإنسان بعد ذلك إلى مرحلة الرعي، وصحب ذلك تحول بالغ في إطار العلاقات البيئية للإنسان، وذلك لأنه أحدث تحولات وراثية وبيئية في حياة أنواع من الحيوانات المستأنسة، أي حوله من الحياة البرية إلى حياة الاعتماد على رعاية الإنسان ثم اتجهت حياة الإنسان إلى مرحلة الزراعة والاستقرار، وهنا استكمل الإنسان سيادته على الأحوال البيئية، فهو يبدل الكساء النباتي البري بأنواع من الكساء النباتي يزرعها ويفلحها، وهو يستعمل مياه الأنهار في الري، ثم يتدرج إلى التأثير على نظم الأنهار وضبطها بما ينشئه من سدود وما يشقه من قنوات الري، ثم يبني قراه حيث تتكاتف الجماعة إلى جانب ما استحدثه من آلات للحرث والري والحصاد وغيرها، أي أن الإنسان أصبح قادرًا على خلق بيئة ذات سمات يرجع الكثير منها إلى فعله الإرادي[1].

وفيما يلي بعض نماذج لهذه المراحل:

١. مجتمعات الصيد:

ويتوقف تكيف السكان في مجتمعات الجمع والصيد على توفر النباتات والحيوانات البرية، والحصول على الطعام عن طريق الترحال والتجوال في الأجزاء المختلفة من الأرض حيث تعيش هذه التجمعات على شكل فرق صغيرة مكونة من (١٠ إلى ٥٠) فرد، فهي جماعات صغيرة ينقصها الاستقرار

(١) محمد السيد غلاب، الإنسان وحاجاته من البيئة، في الإنسان والبيئة مرجع في العلوم البيئية للتعليم العالي والجامعي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٨، ص ٣٦، ٣٧.

السياسي والقانوني والديني. ومع ذلك لهم طريقتهم المنظمة في اتخاذ القرارات الجماعية وإنهاء النزاعات فالتفاعل بين الإنسان والبيئة في هذه المجتمعات تفاعل مباشر[١].

مثال ذلك جماعة البوشمن Bushmen التي يمتد موطنهم في صحراء كلهاري في الوقت الحاضر من نهر أورنج Orang في الجنوب إلى مستنقعات «أوكافانجو» Okavango وبحيرة «نجامي» Ngami في الشمال، وهي منطقة قليلة الأمطار يتراوح مطرها بين (٢٠) بوصة في الشمال والشرق إلى (٨) بوصات في الجنوب الغربي والغرب، وموسم سقوط المطر قصير، والمطر غير مضمون في كميته في موسم سقوطه. وتوجد موارد الماء الدائمة في مناطق خاصة هي المناطق المنخفضة، وفي بطون الأودية وفي المناطق التي تتوفر فيها المياه تكثر الحشائش والأعشاب وأشجار «الباوباب» baobabs؛ ولكن تندر وجود الحشائش كثيرًا في غير ذلك من الأماكن.

٢. مجتمعات الرعي:

يوضح «إيفانز بريتشارد» في دراسته عن قبائل النوير أثر العوامل البيئية الطبيعية في حياة السكان الرعاة ففي شهر مايو من كل عام تبدأ الأمطار في السقوط بغزارة، الأمر الذي يؤدي إلى فيضان الأنهار حتى إذا ما جاء شهر يونيو، تكون غالبية المناطق قد تحولت إلى مستنقعات هائلة، وفي خلال فصل الأمطار يعيش النوير في قراهم التي يقيمونها فوق روابي عالية لتحميهم من مياه الأمطار وفي ذلك الفصل يشتغلون بزراعة الذرة ورعي الماشية، وعندما ينتهي فصل الأمطار يخرج الأهالي ومعهم ماشيتهم يرتحلون بها من مرعى إلى آخر، ويقيمون لهم مخيمات

(١) إيان ج. سيمونز، البيئة والإنسان عبر العصور، ترجمة: السيد محمد عثمان، عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٢٢، ١٩٩٧، ص١٥.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

في كل مكان يحلون به. ويستمر الحال كذلك حتى يبدأ سقوط المطر، وعندئذ يسارع الأهالي بالعودة إلى قراهم ثانية.

وتلعب العوامل البيئية دورًا هامًا في تشكيل النمط الاقتصادي، وتعتبر الماشية هي أساس النسق الاقتصادي في النوير فمن ناحية التغذية يعتمد السكان على لبن الماشية، وبصفة خاصة بالنسبة للأطفال، ومن ثم فإنهم يقدرون قيمة البقرة تبعًا لمقدار كمية اللبن الذي تدره. والنوير معرفون بأكل لحوم الماشية، كما أنهم لا يحرمون أكل الميتة والدم فإذا مات الثور أو الخروف ميتة طبيعية، فإنهم يقومون بأكل لحومها ويحصل الأهالي على دماء الماشية من رقابهم، يأكلونه أثناء فصل الجفاف وتتلخص طريقتهم في استخراج الدم فيما يلي: يقوم النوير بربط حبل حول رقبة البقرة بإحكام شديد حتى تظهر عروق الدماء بها، وعندئذ يطعنون أحد العروق بسكين، فتسيل منه الدماء في وعاء يعد لهذا الغرض وعندما يمتلئ الإناء بالدم، فإنهم يفكون الحبل من حول رقبة البقرة، ثم يضعون بعضًا من روث الماشية فوق الجرح ليلتئم وبعد ذلك تقوم النساء بغلي الدم في الإناء حتى يتجمد، ثم يقدم للأكل بعد ذلك. وفي أحيان أخرى يترك الأهالي الدم بعد استخراجه من رقبة البقرة في الإناء حتى يتجمد، ثم يقومون بشوائه على الجمر، وبعد ذلك يقطعونه إلى أجزاء يقدم للأكل بعد ذلك.

وقد أثرت أيضًا الظروف البيئية في مكان إقامة الأسرة الذي يتكون من كوخ أو عدة أكواخ وحظيرة للماشية وللحظيرة أهمية خاصة عند النوير فالماشية تنام فيها أثناء فصل الأمطار، كما أن بعض الشبان من الأسرة ينامون فيها أيضًا، ويوجد في وسطها نار موقدة ليلاً ونهارًا لحماية الماشية من البعوض ومن الناحية الاجتماعية، تعتبر الحظيرة مركزًا للحياة الاجتماعية بالقرية فالأهالي يقضون وقت فراغهم بها، كما أنهم يستقبلون فيها ضيوفهم كذلك وبالنسبة لموقع

كوخ الزوجة، فإنه يوجد بجوار حظيرة الماشية، ويوجد خارج الكوخ ستار ضد الريح حيث تجلس الزوجة بداخله لطهي الطعام وبالقرب من هذا الستار توجد حفرة في الأرض لدق الذرة، ويعتبر الستار مركزًا للحياة الاجتماعية بالنسبة للمرأة المتزوجة فهناك تستقبل صديقاتها وجاراتها[١].

ومن أبرز الدراسات أيضًا التي تناولت التكيف في المجتمعات الرعوية دراسة «روبرت ايدجرتون» Robert Edgerton عن التكيف في المجتمعات الرعوية في شرق أفريقيا[٢].

وقد بين أيضًا «برين سبونز» Brian Spooner في دراسته عن الإيكولوجيا الثقافية للبدو الرحل The Cultural Ecology of Pastoral Nomads أثر العوامل الإيكولوجية في ثقافة السكان البدو الذين تم تكيفهم، محاولاً تقديم تفسيرًا عامًا لبعض الأنساق الثقافية والاجتماعية الناتجة عن التكيف في المجتمع البدوي، والتي تتمثل في الملكية الجماعية للقطعان، وارتباط السلطة أو القيادة بحجم القطيع، والنزعة إلى الاستقلال والمساواة بين البشر فقد توصل «سبونز» إلى أن تكيف السكان في تجمعات محددة يتطلب توافر مجموعة من الحيوانات مثل الجمال والماشية، وإن الزيادة السكانية في بعض الأماكن الزراعية أدت إلى هجرة بعض السكان إلى منطقة أخرى، وممارستهم لمهن أخرى تتمثل في الرعي معتمدة في ذلك على وسائل تكنولوجية بسيطة، ويوجد توازن وثبات بين الجماعة البدوية الصغيرة والجماعة الاجتماعية الكبيرة التي تنتمي إليها، ويعتمد التنظيم الاجتماعي

(١) علي محمود إسلام، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢١٦ – ٢٢٣.

(2) (1). Robert، Edgerton، The Individual in Cultural adaptation، Berkeley: University California Press، 1971، P. 294.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

والأدوار القيادية داخل الجماعة البدوية على الفردية الشخصية[1].

ومن الدراسات الهامة أيضًا عن التكيف دراسة «شنيدر» Schneider عام ١٩٨٤ عن تكيف الأنماط الرعوية لسكان شرق أفريقيا، محاولاً فيها التعرف على التنظيم الاجتماعي للمجتمع الرعوي القائم على أساس البدنة والمرتبط بوجود الموارد، كما يحاول التعرف على الظروف المحلية للسكان للتعرف على مدى توافق السكان مع هذه البيئة[2].

الخاتمة

شهدت العقود الأخيرة من القرن المنصرم تقدماً ملموساً في الانثروبولوجيا كمدخل منهجي وكعلم لدراسة الانسان، وانعكس ذلك التقدم في تطور وسائل البحث فيه، وفي تنوع مجالات الاهتمام، وفي هذا الصدد تطرقت الانثروبولوجيا بفروعها الى بحث ودراسة الكثير من القضايا التي تتعلق بالأنسان، سواء في مجال الصحة او السياسة او التعليم او التنمية الاجتماعية او التحضر او الاقتصاد.

ويتسق ذلك الاتساع في نطاق البحث ومسؤولية الباحثين في هذا العلم نحو التصدي لقضايا الانسان المعاصر بعد ان ظلت حبيسة في بداية توجهاته ولسنوات طويلة بدراسة الجماعات المعزولة، وبالأعتماد على وصف حياة هذه الجماعات بالتركيز على عوامل السكون لطرق وأساليب الحياة التقليدية التي تعيشها تلك الجماعات، وقد اقترن

(1) Brian Spooner، >The Cultural Ecology of Pastoral Nomads، an Addison – Wesley module in Anthropology<، No. 45، 1973، P. 1.

(2) Emilio Moran، >Human Adaptability: An Introduction to Ecological Anthropology<، Op. Cit.، P. 50.

ذلك بنشأتها ومسماها ومجال اهتمامها بهذه المجتمعات.

والجدير بالذكر ان الكثير من الفروع الحديثة في الانثروبولوجيا لم تنشأ من فراغ، وإنما نشأت في اطار جهود علماء الانثروبولوجيا وسعيهم الدائم والحثيث نحو إعادة طرح الكثير من الافكار والمسلمات في مجال علوم الإنسان والتي كانت قد صيغت في أطر اجتماعية متباينة، ومن ثم تعثرت او بالأحرى ظلت قاصرة على فهم الاشكال او النماذج الاجتماعية.

ومع هذا التطور الزمني ظهرت توجهات انثروبولوجية معنية بدراسة الاشكال او النماذج الاجتماعية، فقد كان لموضوع التكيف الثقافي الذي يبين فيه مبدأ منظم يتبادل فيه البشر العلاقات مع الموطن لكي يجعلوا ذلك الموطن ملائمًا للحياة، وان مفهوم التكيف يتميز بمكانة رئيسة في دراسة العلاقة بين الانسان والبيئة الطبيعة من خلال نماذج الصيد والرعي والزراعة ومدى تكيف الانسان معها .

المصادر

١. نادر الملاح، التكيف الاجتماعي، لبنان ،٢٠٠٩، ص٧٦.

٢. فتحية محمد ابراهيم، الثقافة والبيئة: مدخل الى دراسة الانثروبولوجيا الايكولوجية، دار المريخ،الرياض، ١٩٨٨،ص٩٦.

٣. يسرى دعبس، تنمية الموارد البشرية في المجتمع البدوي دراسة في الانثروبولوجيا الاقتصادية، الاسكندرية، ١٩٩٨،ص٦٩.

٤. ايمان علي، التكيف الثقافي في المجتمعات المستحدثة، جامعة بني سويف، كلية الآداب،٢٠١٢، ص٦، رسالة ماجستير غير منشورة.

٥. مارفن هاريس، الانثروبولوجيا الثقافية، ترجمة مجموعة من الاساتذة، دار الثقافة العربية، ط٢، مصر ،٢٠٠٦،ص٦٣.

٦. محمد السيد غلاب، الإنسان وحاجاته من البيئة، في الإنسان والبيئة مرجع في

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

العلوم البيئية للتعليم العالي والجامعي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٧٨.

٧. إيان ج. سيمونز، البيئة والإنسان عبر العصور، ترجمة: السيد محمد عثمان، عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٢٢، ١٩٩٧.

8. Catherine Marquette، >Cultural Ecology: Introduction، Themes، History، Journals، lins، Information tables<، 2006.

9. J.Steward،Theory of Culture Change: the Methodology of Multilinear Evolution، Urbana، University of Press، 1955،

10. Elmers Miller and Charles A. Weitz، >In Introduction to Anthropology<، Prentice-Hall، Inc-New Jersey، 1979،

11. J. Helm، >The Ecological Approach in Anthropology< in American Journal of Sociology، Vol. 11، No. 6، 1962،

12. Roy Ellen. Environment-Subsistence and System: the Ecology of Small-scale Social Formation ،University of Kent at Conter Burg، New York، 1986.

13. Arutyonov، SAdaptivnoie znachenie kulturnogo polimorfizma [Adaptive meaning of cultural polymorphism]. Etnograficheskoe obozrenie.; (1993).

14. Clifford Geertz، >Agricultural Involution: The Process of Ecological Change in Indonesia<، Op. Cit.،

15. Dr. Robert Boyd.،Culture: the engine of human adaptation، Being Human blog post ، Posted on 09/12/2012

16. Dr. Robert Boyd is Professor in the School of Human

Evolution and Social Change at Arizona State University and co-author of How Humans Evolved.

17. Elmers Miller and Charles A. Weitz، >In Introduction to Anthropology<، Prentice-Hall، Inc-New Jersey، 1979.

18. Dr. Robert Boyd.،Culture: the engine of human adaptation، Being Human blog post ، Posted on 09/12/2012.

19. Brian Spooner، >The Cultural Ecology of Pastoral Nomads، an Addison – Wesley module in Anthropology<، No. 45، 1973

ISSN: 2075 - 2954 (Print)